مفهوم المنهجية والتحقيق والتراث.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

إن من أهم الخصائص التي امتازت بها علوم الشريعة الإسلامية على غيرها هي اتصال أسانيد نصوصها بمصادرها، سواء كانت مصادر أصلية كالكتاب والسنة، أو كانت مصادر تبعية خادمة وموضحة وشارحة لهذين الأصلين، ككتب التفسير وشروح الحديث وكتب الفقه في أحكام الشريعة، وغيرها من كتب علوم الآلة المساعدة على فهم النصوص واستنباط الأحكام منها ككتب الأصول واللغة وغيرها.

إنّ خاصية ربط علوم الشريعة بمصادرها سواء كانت كتب مقاصد أو كتب وسائل هي التي جعلت هذه العلوم بمجموعها عصية على الاختراق وغير قابلة للتحريف والتبديل، فقد حاول أعداء الشريعة الإسلامية عبر العصور قطع حيل الوصال بين علوم الشريعة ومصادرها سواء المعرفية أو المادية، وسعوا للتشكيك في نسبة هذه العلوم إلى مصادرها الأصلية حتى يبطلوا الاحتجاج بها والاعتماد عليها في زعمهم.

وليس بخاف على كل دارس لعلوم الشريعة منقولها ومعقولها تلك الدعاوى المتكررة التي تسعى للتشكيك في نسبة النصوص الشرعية إلى مصادرها، والتي بدأت منذ عصر الرسالة الأول وما زالت مستمر حتى الآن من دعاة التغريب والانسلاخ الحضاري، ومن يعض المستشرقين ومن أذنابهم من المفتونين في العالم الإسلامي، ويمكن حصر هذه الهجمة المتجددة في مجموعة من النقاط التالية:

1- الطعن في صحة القرآن.
2- الطعن في صحة السنة.
3- الطعن في نسبة كتب علماء الإسلام إلى أصحابها

يقول عبد السلام هارون في كتابه " تحقيق النصوص ونشرها" مبينا أهمية ما بين يدي الأمة من تراث ضخم يستحق العناية والجهد، ومبيناً الأسباب الدافعة للعناية به:" إنّ هذا التراث الضخم الذي آل إلينا من أسلافنا صانعي الثقافة الإسلامية الغربية، جدير بأن نقف أمامه وقفة الإكبار والإجلال، ثم نسمو برؤوسنا في اعتزاز وشعور صادق بالفخر والغبطة والكبرياء.

إن هذه الصيحات التي يرددها دعاة الاستعمار الثقافي يبغون بها أن ننبذ هذا التراث ونطرحه وراءنا ظهريا، صيحة في واد. وكم لهم من محاولات يائسة يدورون بها ذات اليمين وذات الشمال، كي يهدموا هذا الصرح. ولكن تلك

المحاولات لم تجد لها صدى إلا عند من أمكنهم أن يصفوا على أنفسهم ظل الاستعباد الثقافي، من ضعاف القلوب، وأرقاء التفكير.

حاولوا أن يقضوا على الكتابة العربية ليقطعوا ما بين حاضر العرب وماضيهم وألحوا في ذلك إلحاحًا متواصلًا فباءوا من بعد ذلك بالفشل. وجهدوا أن يحاربوا اللغة الفصيحة فنادوا أن ندع أهم خصيصة من خصائص العربية فنلغي إعراب الكلمات؛ لأن ذلك عبء ناءت به –فيما يزعمون– بعد القرون قرون! حاولوا ذلك فعادوا في خزي تعلوهم الخيبة!

أرادونا على أن نتخلص من مقاييس اللغة ومعاييرها فنقولها فوضى بلا نظام، فلم يستطيعوا أن يقسرون على ذلك. وهم فيما بين ذلك يحاولون أن يضعوا من ثقتنا في هذا التراث الضخم، فلا يزالون يوجهون إليها المطاعن والمثالب، ويهونون من شأنه تهوينا."

لأجل هذه الجملة المتوافرة من الأسباب وجب على طلاب العلم العناية بالمخطوطات، وحفظها من كل تحريف وتبديل، ونفض غبار الزمن عنها وإخراجها في أحسن شكل يسهل الاستفادة من علومها الجمة.

سأحاول في هذه المحاضرة الافتتاحية التعريف بمصطلحات هذه المادة والتي تدور حول والتحقيق والتراث.

1-تعريف التحقيق:

جاء في مقاييس اللغة أن مادة "الحق" الْحَاءُ وَالْقَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى إِحْكَامِ الشَّيْءِ وَصِحَّتِهِ ."

وجاء في أساس البلاغة "حققت الأمر وأحققته: كنت على يقين منه. وحققت الخبر فأنا أحقه: وقفت على حقيقته. ويقول الرجل لأصحابه إذا بلغهم خبر فلم يستيقنوه: أنا أحق لكم هذا الخبر، أي أعلمه لكم وأعرف حقيقته ."

وجاء وفي مختار الصحاح: "حق الأمر تحققه:صار منه على يقين، وتحقق عنده الخبر:صح."

وفي المعجم الوسيط نجد أن حقق الْأَمر أثْبته وَصدقه يُقَال حقق الظَّن وحقق القَوْل والقضية وَالشَّيْء وَالْأَمر أحكمه وَيُقَال حقق الثَّوْب أحكم نسجه ."

إن هذه المعاني اللغوية للتحقيق ترتبط باليقين والبعد عن الزيف وصحة الشيء وثبوته. وهذا التحقيق بصفة عامة أما التحقيق الذي يهمنا هنا هو المضاف للنصوص أو التراث أو المخطوطات فالتحقيق المرتبط بهذه المصطلحات هو" اتباع وسائل معينة للوصول بالنص المخطوط إلى الصورة التي يغلب على الظن أنها كلام المؤلف الذي نسب إليه هذا النص". وفي هذا الإطار يقول العلامة عبد السلام هارون في تعريف الكتاب المحقق بأنه: الذي صح عنوانه، واسم مؤلفه، ونسبة الكتاب إليه، وكان متنه أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلفه.

فتحقيق المخطوط يعني: "قراءته قراءة صحيحة، وإحكام تحريره وضبطه، وإخراجه على الوجه الصحيح الذي وضعه عليه مؤلفه أو على أقرب وجه يطابق الوضع الأصيل الذي تم على يد مصنفه، كل ذلك بالاعتماد على منهج علمي يحكم سير عملية التحقيق.

وإذا كان التحقيق بهذا المعنى فعلم التحقيق هو العلم الذي يبحث في قواعد ومناهج التحقيق وكيفية إخراج الكتب وإعدادها للطبع والنشر، ويعتبر هذا العلم علماً حديثاً ارتبط بإحياء التراث اليوناني والروماني عند الغرب وبإحياء التراث العربي والإسلامي عند العرب.

2- تعريف التراث:

التراث كلمة عربية فصحى لقوله تعالى في سورة الفجر:" ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾

ومعناه في اللغة ما يتركه الإنسان من علم وأدب ومال، فهو بهذا والميراث بمعنى واحد، لكن كثر استعماله في هذا العصر بمعنى الميراث العلمي تحديدا، في إشارة إلى ما دونه وكتبه علماء المسلمين الأوائل من علوم، فهو وصف للمنتوج المادي لهؤلاء العلماء الذي ورثوه للأمة وضمنوه علماً نافعاً في الدين والدنيا.

3-تعريف المنهج:

المنهج على وزن مفعل والتي تأتي لدلالة على المصدر أو اسم الزمان أو اسم المكان، ومعناه الطريقة أو المذهب المتبع، ويطلق في الاصطلاح على مجموعة القواعد العلمية المتبعة في حل إشكال قضية من القضايا يتوقف عليها الفهم.

تاريخ علم التحقيق

لا شك أن علم التحقيق باعتباره علما مستقلا له مناهجه وأصوله يعد علما حديثا نسبيا ظهر بعد ظهور وانتشار الطباعة في القرن الخامس عشر الميلادي. ولكن هذا الأمر لا يعني أن العرب لم يعرفوا أي شكل من أشكال التحقيق ووسائله بل على العكس من ذلك عرفت الحضارة العربية الإسلامية مجموعة من العمليات التي تعد من صميم التحقيق وأشهرها:

1-" الضبط" بمعنى عملية تقويم نص الكتاب والتأكد من صحته. جاء في المعجم الوسيط: ضبط الكتاب ونحوه: أصلح خلله وشكله، وضبط الكتاب بمعنى: تقويمه وتصويبه، مأخوذ من الضبط والرواية الشفوية .

2-" التحرير" وهو مرادف للفظ الضبط، إذ يريدون به تأكيد الكتابة والتأكد من صحتها أيضًا، وهو تحرير الكتاب من العناصر الزائفة والدخيلة التي حشرت بمرور الزمن .

3-" المقابلة" أي مقابلة نسخ الكتاب المختلفة بعضها على بعض، من أجل ضبط النص وتصحيحه.

وتأكيدا لهذا الأمر "يقول الأستاذ علي النجدي ناصف في كتابه سيبويه إمام النحاة: كان للقدماء عناية ملحوظة بضبط النصوص، والمحافظة على صحتها، وكانوا يروون أخبارها بالسند حتى يرفعوها إلى أصحابها على نحو ما كانوا يصنعون بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وكانوا ينسبون نسخ الكتاب التي يكتبونها فرعا إلى أصل حتى يبلغوا بها أوائلها التي تحدرت منها، وكانوا يقرؤونها معارضة على الأصول التي ينقلون عنها ."

جمع القرآن

يعد جمع القرآن في حقيقته عملا تحقيقيا حيث كان الصحابة الذين كلفهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجمع القرآن بعد معركة اليمامة التي شهدت مقتل سبعين صحابيا من القراء يشترطون في قبوله أن يشهد به شاهدان من أجل تأكيد نسبته لله تعالى.

كما يعد علم مصطلح الحديث العلم التحقيقي الأول عند المسلمين بل لا يوجد له مثيل عند أمة من الأمم، إلا أن علم الحديث يرتبط بعلم التحقيق من جهة إثبات نسبة النص إلى صاحبه وفق أصول وقواعد علمية دقيقة قد لا نجدها في علم التحقيق، والأمر طبيعي لأن الحديث نسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يجوز تغليب الظن في أمر كهذا، بينما نجد أن بعض الكتب تنسب لأشخاص على سبيل الظن أو تغليبه في بعض الأحيان .

وإذا كان التحقيق قد ظهر عند العرب قديما فإنه لم يكن علما مستقلا له أصوله ومناهجه الواضحة التي تدرس بل مجرد إجراءات وعمليات يقوم بها بعض الأفراد. وقد تطورت هذه الإجراءات حيث ظهرت غيرها كالفهارس وعلامات الترقيم والشرح والتعليق والمقدمة والخاتمة....

وبدأت عملية التحقيق توازي عملية الطباعة إلا أن أولى المطبوعات العربية التي نشرت لم تظهر في بلاد المسلمين لتأخر دخول المطبعة إليهم، والتي بدأت في القرن التاسع عشر عندما ظهرت في اسطنبول ثم في مصر بعد ذلك.

فلم تكن النسخ التي طبعت في روما وغيرها قبل تحقق حيث اكتفى المستشرقون بنشرها كما هي في الغالب بلا مقابلة ولا تصحيح ولا فهرسة. ومن أوائل هذه الكتب المطبوعة:

– صلاة السواعي: الصلوات الليلية والنهارية، 1514 بإيطاليا.

–أول طبعة للنص العربي للقرآن الكريم 1530 البندقية بإيطاليا.

– الكافية في علم النحو للفقيه المالكي ابن الحاجب(ت646هـ) روما 1592.

– النجاة لابن سيناء "428هـ" نشر في روما 1001هـ–1593م.

– التصريف لإبراهيم بن عبد الوهاب الزنجاني "655هـ" نشر في روما 1610م .

– المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا "732هـ" طبع بتصحيح آرلر، صدر في خمسة أجزاء في "لهاي" 1023هـ–1789م.

– الأوزان والأكيال الشرعية لتقي الدين المقريزي، نشر في روستك 1212هـ–1800م.

–شرح ديوان المفضليات، لأبي بكر الأنباري "328هـ" نشرته المطبعة الكاثوليكية بإكسفورد 1223هـ–1808م بتحقيق جاريس لايل .

– المنتخب من تاريخ حلب، وهو منتخب من "زبدة الحلب في تاريخ حلب" لابن العديم، نشره فريتاغ سنة 1234هـ–1819م.

– شرح ديوان الحماسة للتبريزي "502هـ" نشر في برن سنة 1828م بتحقيق فريتاغ.

– تقويم البلدان، لأبي الفداء "732هـ" نشر بباريس 1256هـ–1840م بتحقيق ماك جوكين دي سلان.

– عجائب المخلوقات، للقزويني "682هـ" نشر في كوتنكن 1265هـ–1849م بتحقيق فستفلد.

– الكامل في اللغة والأدب، للمبرد "286هـ" نشر في لندن 1860 و. رايت .

– نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، للشريف الإدريسي الصقلي "560هـ" نشر في ليدن 1866 تحقيق روزي.

– معجم البلدان، لياقوت الحموي "626هـ" نشر في لايبزك سنة 1868 بتحقيق فستفلد.

– الفهرست، لابن النديم "438هـ" نشر في لايبزك سنة 1871 بتحقيق فلوجل.

– كتاب سيبويه، نشر في باريس 1881–1885م هرتويغ ورنبرغ.

– الأخبار الطوال للدينوري "282هـ" نشر في لندن 1888 بتحقيق فلاديمير وكراتشكوفسكي.

– صفة جزيرة العرب للهمداني "360هـ" نشر في ليدن عام 1891 بتحقيق دافيد هزيخ ميللر.

– المرصع لابن الأثير "606هـ" نشر عام 1896 بتحقيق س. ف سيبولدفيمار.

– رسائل أبي العلاء المعري، نشر في أكسفورد 1898 بتحقيق د. س. مرجليوت

إن الملاحظ أن كل هذه الكتب نشرها المستشرقون مما يؤكد دورهم الذي لعبوه في نشر التراث العربي رغم اختلافهم في تقديره والاعتراف بفضله في تاريخ الحضارات .

ومنذ وصول المطبعة لأرض العرب بدأت طباعة الكتب والتي كانت في البداية ذات طابع مسيحي لأن رواد الطباعة كانوا مسيحيين خاصة في لبنان. وانتشر طبع كتب التراث المختلفة في المطبعة الأميرية (مطبعة بولاق) بمصر والتي تعد فتحا عظيما لصالح التراث العربي عامة. وقد تميز نشر التراث في هذه المرحلة بمجموعة من الخصائص أهمها:

- إغفال ذكر المخطوط ووصفه وتاريخه ومميزاته.
- النشر بدون فهرسة.
- عدم ذكر اسم المصحح في البداية وقد يشار إليه إشارة بسيطة في نهاية الكتاب .
- نشر أكثر من كتاب في كتاب واحد فعلى سبيل المثال: شرح سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح، طبع معه مواهب الفتاح في شرح التلخيص، وعروس الأفراح في شرح التلخيص، والإيضاح للخطيب القزويني، وحاشية الدسوقي على شرح السعد.

إلا أن النشر تجاوز بعض السلبيات القديمة حيث بدأ الاهتمام بالمخطوط ووصفه والتصحيح وعدم جمع الكتب في كتاب واحد. وقد بدأ هذا مع ظهور ناشرين لهم مبدأ ورسالة وعلم كمحمد أمين بن عبد العزيز الخانجي صاحب مكتبة الخانجي(ت1939) و محب الدين الخطيب(ت1929) صاحب المطبعة السلفية و محمد منير الدمشقي (ت1948) صاحب المطبعة المنيرية و حسام الدين المقدسي(ت1978) الشيخ محمد حامد الفقي (ت1959) مؤسس مطبعة السنة المحمدية و الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد(ت1983) وقد كان بعض هؤلاء الناشرين على صلة بأشهر المهتمين بالتراث العربي من العرب والمستشرقين كأحمد تيمور باشا، وأحمد زكي باشا "شيخ العروبة"، ومن المستشرقين: جويدي ونللينو الإيطاليان، وماسينيون الفرنسي، وبراجستراسر الألماني، وجولد تسيهر المجري .

ويعد تأسيس دار الكتب المصرية تحولاً مهماً في تاريخ نشر التراث العربي من جهة وفي تطور علم التحقيق من جهة أخرى، حيث ضمت الدار ثلة من كبار المحققين الذين استفادوا من شيخ العروبة أحمد زكي باشا رحمه الله والذي له اليد الطولى في علم التحقيق عند العرب .

وبعد شيخ العروبة اشتهرت مجموعة من الأسماء اللامعة في سماء التحقيق وظهرت مؤسسات مختصة بتحقيق التراث ونشره في أغلب الدول العربية والإسلامية بل وغير الإسلامية.